سورة الحج

سورة الحج مدنيّة وآياتها ثمان وسبعون آية.

[١] بدأت السورة بنداء الله لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم أن يتقوا ربهم الذي أنشأهم ورباهم ورزقهم وحفظهم؛ والتقوىٰ هي إقامة وتنفيذ وتطبيق أوامر الله ونواهيه بإخلاص لله تعالىٰ ومتابعة لرسول الله ﷺ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوىٰ تخويفًا وتحذيرًا لهم مما سوف يحدث في هذا الكون عند قيام الساعة من أهوال تذهل لها العقول، وتتصدع منها القلوب.

[٢] ثم بين سبحانه أنه في ذلك اليوم العظيم سوف ترون كيف أن الأم تنسىٰ ابنها الرضيع من شدة ما نزل بها من الكرب، وتُسقط الحامل حملها من الرعب، وترىٰ الناس مثل السكارىٰ، وفي الحقيقة ليسوا بسكارىٰ، ولا أحد يلتفت إلىٰ أمه أو أبيه أو أحبابه، كلٌّ هائم علىٰ وجهه، يقول: اللهم سلِّم سلِّم؛ وقد عمَّ الجميع هول ذلك اليوم، وطيَّر عقولهم، ورأوا في الأرض والكواكب والجبال أشياء تحدث لا تحتملها عقولهم، كل ذلك بسبب شدة هول العذاب هو الذي جعلهم علىٰ هذه الحال التي تشبه حال السكارىٰ في الذهول والاضطراب.

كما قال شوقي: في وصف أحداثٍ أقل بآلاف المرات من أهوال الساعة:

ومعـــذِرةُ اليَرَاعـــةِ والقـــوافي جلالُ الرُّزءِ عن وصف يدقُّ

[٣] ثم أخبر جل علا أن هناك طائفة من الناس ومنهم النضر بن الحارث يخاصم فيقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، ويتكلم في صفات الله وذاته، ويشكك في قدرة الله بغير علم ولا برهان، ويَتَّبع في مخاصمته بالباطل كل شيطان متمرد علىٰ الحق.

[٤] ثم أخبر سبحانه أنه قد حكم وقضىٰ علىٰ كل من اتَّبع هذا الشيطان واتخذه وليًّا أنه يضله ويكون سببًا في دخوله جنهم وعذابه في نارها المستعرة.

[٥] ثم وجه جل في علاه النداء إلىٰ أهل مكة وغيرهم من المنكرين للبعث فقال تعالىٰ: ياأيها الناس إن كنتم في شك من أن الله قادر علىٰ إحياء الموتىٰ فانظروا في مبدأ خلقكم ونشأتكم الأولىٰ التي مر بها كل شخص قبل أن يكون إنسانًا متكامل البنية، واعلموا أنه سبحانه وتعالىٰ خلق أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة يقذفها الرجل في رحم المرأة فتتحول بقدرة الله إلىٰ علقة، وهي عبارة عن دم أحمر غليظ تتعلق بجدار الرحم، ثم إن هذه العلقة تتحول إلىٰ مضغة، وهي عبارة عن قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ، وهذه المضغة إما أن تكون كاملة الخلق، وتستمر فيها الحياة حتىٰ تُصبح جنينًا كاملًا يخرج بأمر الله حيًّا، وإما أن تكون غير تامة الخلق، فلا تستمر فيها الحياة وتسقط بأمر الله ميتةً؛ لِيُثْبِتَ لكم جل في علاه عن طريق المشاهدة ما يدل علىٰ كمال قدرته سبحانه بأنه يُقِرُّ وَيُبْقِي في أرحام الأمهات ما يشاء إقراره إلىٰ الوقت المحدد لولادة الجنين، وما لم يشأ سبحانه إقراره فإنه يأمر الرحم بأن يلفظه ويسقطه، فإذا اكتملت حياة الجنين فإن الله يأمر بخروجه من رحم أمه طفلًا صغيرًا، ثم يكبر شيئًا فشيئًا، ويمر بمراحل الحياة حتىٰ يبلغ أشده، وهي مرحلة الشباب والقوة والفتوة واكتمال العقل.

ثم بين سبحانه بأن بعض الأطفال يقدِّر الله عليه فيموت قبل أن يكبر، وبعضهم يكبر ويستمر في الحياة حتىٰ يصل إلىٰ مرحلة الخرف وهي أضعف وأسوأ مراحل العمر؛ فيصير من بعد علمه ومعرفته وبلوغه الكمال في الرجولة وتدبير شؤونه؛ كأنه طفل في تفكيره وعلمه، ثم اعلموا أيها الناس أن من دلائل قدرة الله إحياء الأرض الميتة فيجعلها روضة خضراء بعد ما كانت يابسة يبابًا؛ حيث ينزل عليها الماء بقدرة الله سبحانه فتتحرك وتشرب الماء الذي يتسلل خلالها فيخرجُ النبات منها علىٰ شكل أصناف متنوعة تبهج وتسر كل من نظر إليها.

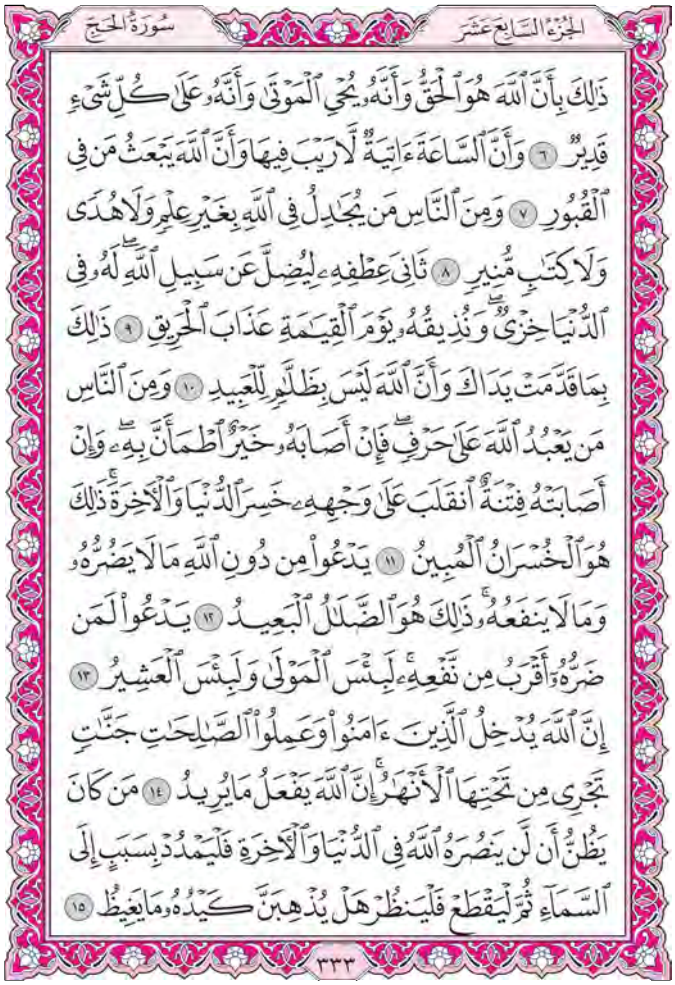

[٦] واعلموا أن ما تقدم ذكره من آيات تدل علىٰ قدره الله دليل واضح بيِّنٌ أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الإله الحق الفعال لما يريد، الذي يجب اخلاص العبادة والطاعة له وحده، ودليل علىٰ أنه جل وعلا هو الذي يحيي ويميت، وأنه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٧] واعلموا أيها الناس أن يوم القيامة وما يشتمل عليه من حساب وثواب وعقاب سيأتي لا شك في ذلك؛ في الوقت المحدد الذي كتبه وقدره جل وعلا، واعلموا أيضًا أنه سبحانه سوف يبعث الموتىٰ من قبورهم ليحاسبهم علىٰ أعمالهم.

[٨] يخبر جل وعلا أن بعض الكفار يخاصم بالباطل في الله، وفي توحيده، وفي اختياره محمدًا ﷺ نبيًّا ورسولًا، وفي إنزاله القرآن عليه، وليس لديه برهان ولا سند ولا كتاب يستمد منه أقواله، والمقصود بهذه الآية هو أبو جهل والنضر بن الحارث وكل من جادل بالباطل مثلهم.

[٩] ثم بين سبحانه أن هذا المخاصم يلوي عنقه عند سماع الحق تكبرًا وإعراضًا عمَّا دعي إليه، ليصدَّ غيره عن الدخول في دين الله، باذلًا كل جهده لمحاربة الدعوة والطعن في الإسلام، ومن كان هذا حاله فسوف يلقىٰ في الدنيا خزيًا وهوانًا، وسيحرقه الله يوم القيامة في نار جهنم.

[١٠] وفي يوم القيامة تقول الملائكة لهذا المخاصم: اعلم أن هذا العذاب الذي تتجرعه، وهذا الإحراق بالنار الذي تذوقه بسبب إصرارك علىٰ الكفر والضلال؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا من عباده فيعذبه من غير ذنب اكتسبه.

[١١] ثم بين سبحانه أن هناك فئة من الناس دخلوا الإسلام وهم في شك وتردد، ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم؛ فهؤلاء علىٰ طرف من الدين ويربط إيمانه بالدنيا؛ فإن أصابهم خير ونعمة وبركة ورخاء اطمأنوا علىٰ ما هم عليه من ضعف في اليقين، وإن أصابهم فقر أو هلاك شيء من دوابهم ارتدوا عن دينهم وعادوا إلىٰ الكفر والمعاصي، قائلين: إن سبب ذلك هو الدين؛ ولأجل ذلك خسروا دنياهم وآخرتهم؛ لأنهم ضيعوا أسباب النجاة بحبوط أعمالهم، ولا شك أن هذا هو الخسران البيِّن الواضح.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أعراب أتوا المدينة وكان قصدهم المغانم.

[١٢] ثم بين جل وعلا أن هذا الخاسر المرتدَّ يدعو ويعبد من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه -وهذه صفة كل من عُبِدَ من دون الله-، ذلك هو الضلال الطويل البعيد عن الحق كلَّ البُعْد.

[١٣] ثم بين جل شأنه أن هذا الخاسر الذي يعبد الآلهة من دون الله؛ ضررها عليه أقرب من نفعها؛ وذلك واضح بيِّنٌ؛ فهي تضره في دنياه في عقله وسلامته، ولا تستجيب له، وتضره في أُخْراه بأنْ تكون سببًا لوروده النار، وخلوده فيها، فبئست هذه الآلهة التي تولاها من دون الله، وبئس هذا الصاحب الذي يرديه في مهاوي الردىٰ.

[١٤] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه يُدخل الذين آمنوا به، واتبعوا رسوله، وصدَّقوا إيمانهم ودللوا عليه بالأعمال الصالحة؛ يُدخلهم جنات تجري الأنهارُ من تحت أشجارها وقصورها، في منظر يشرح الصدر، ويُبهج النفس، إنه سبحانه يفعل ما يريد، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقِّبَ لحُكْمِه.

[١٥] يخبر سبحانه وتعالىٰ أن من كان يعتقد أن الله لن ينشر الإسلام علىٰ يد محمد ﷺ، وعلىٰ يد أنصاره في العالم، ويقهر أعداءه في الدنيا، ويتوهم أن الله لن يعلي درجة نبيه ﷺ في الآخرة، فعليه أن يمد بحبل إلىٰ السماء ثم يرتقي إليها ليمنع نصر الله لنبيه ﷺ، ثم ينظر هل ذهب كيده وغيظ قلبه.

وفي مد السبب إلىٰ السماء قولان: القول الأول: أن السماء هو كل ما غطىٰ الإنسان وارتفع فوق رأسه كسقف بيته، فعلىٰ من ظن أن الله لن ينصر نبيه ﷺ فعليه أن يمد حبلًا من سقف منزله ثم ليشنق نفسه، أي: يربط الحبل برقبته ويعلق نفسه حتىٰ يهلك، ثم لينظر هل ذهب غيظه أم لا؟!.

والقول الثاني: أنه كي يذهب غيظ نفسه فليمد حبلًا إلىٰ السماء التي يتنزل منها الوحي، ثم ليحول بين محمد ﷺ وما يوحىٰ إليه، أي: يقطع الوحي. وكلا القولين معناهما: أنه لا يملك أحد دفع النصرة عن محمد ﷺ ولو مات غيظًا. وفي هذه الآية بشارة للمؤمنين أن الله ناصرهم ومؤيدهم، وأن العاقبة والغلبة للمؤمنين بقيادة محمد ﷺ ولو كره الكافرون.

[١٦] مدح جل وعلا القرآن وبيَّن أنه كما أقام الحجة من دلائل قدرته علىٰ الكافرين بالبعث فإنه أنزل هذا القرآن وفصّله ووضّحه وجعله آيات بيِّنات دالة علىٰ مصالح العباد في الدنيا والآخرة؛ ومع هذا فالهداية بيد الله؛ فمن أراد الخير والهدىٰ من المكلفين وعلم الله منه الصدق شرح صدره للإيمان، وهداه السبيل المستقيم، ومن أعرض واستعلىٰ وَلَّاه الله ما تولىٰ، وحينها فلو جاءته كل آية لم تنفعه؛ بل تكون حجة عليه.

[١٧] يخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ، واليهود أتباع موسىٰ عليه السلام، والصَّابئين الباقون علىٰ فطرتهم ولا ينتسبون إلىٰ ملة من الملل، والنصارىٰ أتباع عيسىٰ عليه السلام، والمجوس عَبَدَةُ النار، والذين أشركوا بالله فعبدوا معه غيره بأن صرفوا له أي نوع من أنواع العبادة التي لا يحق أن تُصرَف إلّا لله؛ هؤلاء جميعهم سيجمعهم الله يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، ثم يفصل بينهم، فيُدخل أهل الحق من المؤمنين الموحدين الجنة، ويُدخل المشركين المكذّبين النار، إنه سبحانه علىٰ كل شيء شهيد، عالمٌ بكل شيء، لا تخفىٰ عليه خافية، وسيُجازي كل نفس بما كسبت.

[١٨] ثم قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ألم تعلم يانبي الله أن الله جلَّ في عُلاه يسجد له من في السماوات من الملائكة، ومن في الأرض من الجن والإنس المؤمنين، ويسجد له الشمس والقمر والنجوم والجبال والدواب، ويسجد له كثير من الناس من عباده المؤمنين، وهناك الكثير أيضًا من الناس ممن لا يسجد استكبارًا وكفرًا وتكذيبًا؛ فوجب وثبت عليهم العذاب الأليم، وحصلت لهم الإهانة الكاملة باستكبارهم عن السجود والخضوع لله!، ومن يُهِنِ الله من الناس ويُذِلُّه ويُحَقِّرْهُ فليس لأحد أن يرفع قدره أو يعلي ذكره، أو يمنع عنه عذاب الله، إن الله يفعل ما يشاء، فيرفع من شاء بفضله ورحمته، ويذل ويضع من يشاء بحكمته وعدله.

[١٩] ثم بين جل وعلا حال فريقين من الناس مختصمين مختلفين غير متفقين، فالفريق الأول: فريق الكفار الذين لم يؤمنوا بالله ولم يصدّقوا رُسُلَه، فهؤلاء جزاؤهم في الآخرة أن نار جهنم الشديدة الحرارة تحيطُ بهم من كل جانب كما يحيط الثوب بلابسه، ثم يؤتىٰ بالحميم وهو الماء المغليّ الحار جدًّا فيُصبُّ علىٰ رؤوسهم.

[٢٠] ثم بين سبحانه أن من شدة حرارة هذا الماء أن بطونهم تذوب من الداخل، وتميع جلودهم من الخارج.

[٢١] ثم بين سبحانه أن حول هؤلاء الكفار ملائكة غلاظٌ شدادٌ يزيدونهم عذابًا إلىٰ عذابهم، وذلك بضربهم علىٰ رؤوسهم بمطارق من حديد ضربًا شديدًا موجعًا.

[٢٢] ثم بين جل في علاه أن هؤلاء الكفار كلما أرادوا أن يخرجوا مما هم فيه من العذاب الشديد، والهم والغم، وحاولوا الهرب؛ قمعتهم الملائكة بهذه المطارق، فيرجعون وقد ازدادوا غمًّا إلىٰ غمِّهم، وهمًّا إلىٰ همِّهم، ثم يُقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ذوقوا عذاب النار المحرق للقلوب، والأبدان، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، نسأل الله السلامة والعافية.

[٢٣] ثم ذكر سبحانه الفريق الثاني: وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا رسُلَه، وصدَّقوا ذلك بالأعمال الصالحة؛ فهؤلاء يُدخلهم الله جنات كثيرات الأشجار البديعة، تجري من تحتها ومن تحت قصورها أنهارٌ تبهج النفوس وتسرّ الناظرين، وأهل هذه الجنة -رجالًا ونساءً- يُزيَّنون فيها بلبس أساور من ذهب ولؤلؤ في أيديهم، وبلبس الحرير الفاخر، نسأل الله الكريم من واسع فضله.

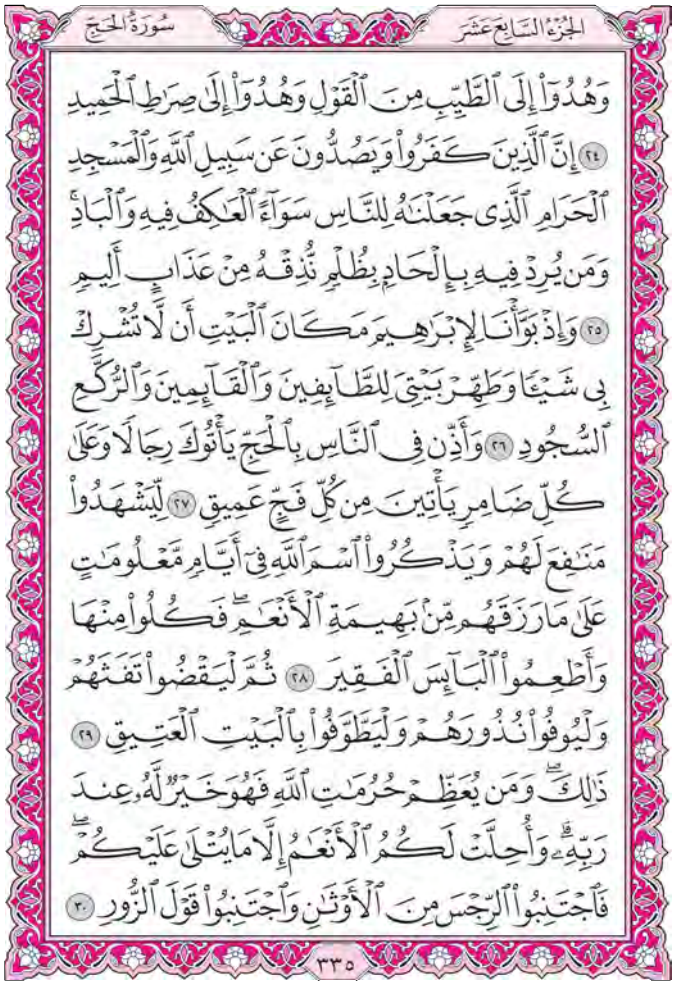

[٢٤] ثم بين سبحانه أنه هدىٰ الذين آمنوا إلىٰ القول الطيب في الحياة الدنيا، وأعظمه: لا إله إلّا الله، وهداهم إلىٰ صراطه المستقيم المحمود الممدوح؛ فهداهم للإسلام، وهداهم إلىٰ دخول الجنة.

[٢٥] يخبر جل وعلا أن الذين كفروا بالله ورسوله ﷺ وجحدوا دينه، ومع كفرهم فإنهم يمنعون غيرهم من التوحيد والإيمان بالله، ويمنعون الناس عن المسجد الحرام، كما منعوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، في حين أن الله جعل المسجد الحرام للمؤمنين جميعًا؛ سواء المقيم فيه أو الطارئ عليه، واعلموا أيها الناس أن من يعتزم الميل عن الحق في الحرم ، ويهم فيه بمنكر عظيم عامدًا متعمدًا، فإن الله سوف يذيقه عذابًا أليمًا موجعًا..

[٢٦] واذكروا أيها الناس يوم أن بيَّن الله لإبراهيم مكان الكعبة المشرفة وهيأها له؛ ثم أمره ببنائها؛ فبناها وأسسها علىٰ القواعد التي غطتها الأتربة، وعلىٰ تقوىٰ الله وتوحيده، ثم أمره أن يطهر نفسه من التعلق بغير الله، وأن يخلص العبادة لله وحده، كما أمره أن يطهر بيت الله من الكفر والبدع والأوساخ والأصنام ليكون طاهرًا نظيفًا لمن أقام فيه ولمن قصدة للطواف به والصلاة والدعاء والذكر عنده. و(ال) في قوله: ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾، هي للتعريف، مما يدل علىٰ أن البيت كان قد بُني قبل إبراهيم، كما قال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فإن إسكانه لهاجر وإسماعيل قبل أن يَكْبُرَ إسماعيل ويساعد أباه في بناء الكعبة.

لهذا كان قول القائلين: إن الكعبة مبنية قبل إبراهيم بأزمنة كثيرة، وأنها جرت عليها عوامل التعرية والسيول ولم يبق إلّا القواعد التي بنىٰ عليها إبراهيم الكعبة بمساعدة ابنه إسماعيل هو قول وجيه.

ومن العلماء الكبار القائلين: إن إبراهيم هو أول من بني الكعبة؛ الشيخ عبد الله البسام، وأستاذه الإمام الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمهما الله.

[٢٧] ثم أمر سبحانه إبراهيم عليه السلام أن يخبر الناس بوجوب الحج عليهم؛ فيأتون بعد النداء ماشين علىٰ أقدامهم وراكبين علىٰ كل ضامر من الإبل، ويأتون من كل مكان قريب وبعيد. وقوله: ﴿ضَامِرٖ﴾ هي الإبل الخفيفة اللحم من كثرة المشي والأعمال. ولما جاء الأمر لإبراهيم، قيل: إنه قال: يارب وماذا يبلغ صوتي؛ فأجابه الله قائلًا: عليك الأذان وعلينا البلاغ؛ فصعد الجبل ورفع صوته، فقال: (ياأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا).

[٢٨] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الحجاج سوف يحضرون للحج والعمرة ولمنافع أخرىٰ تجارية وغيرها، أهمها وأكبرها ذكر الله، ومغفرة الذنوب، ثم أمرهم سبحانه أن يذكروا اسم الله عند ذبح القرابين التي تذبح لله من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم في أيام محددة، وأن يأكلوا منها ويطعموا الفقراء.

والأيام المعلومات هي الأيام العشر الأولىٰ من ذي الحجة، وهي أيام مباركة، فقد ذكر جماعة من أهل العلم رحمهم الله: أنها أفضل أيام السنة علىٰ الإطلاق، كما أن ليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل ليالي السنة علىٰ الإطلاق.

ويأتي فضل وأهمية أيام العشر الأولىٰ من ذي الحجة لوجود أيام فيها لها ميزة وفضل خاص، وهي يوم عرفة ويوم النحر، كما أن فضل وأهمية ليالي العشر الأواخر من رمضان لوجود ليلة القدر فيها. أما الأيام المعدودات التي جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة:٢٠٣]، فهي: يوم عيد الأضحىٰ والثلاثة الأيام التي بعده والتي تسمىٰ أيام التشريق.

[٢٩] ثم بعد إكمالهم مناسك الحج عليهم أن يزيلوا عنهم ما لحق بهم من أوساخ في أبدانهم، وأن يوفوا بنذورهم التي أوجبوها علىٰ أنفسهم، ثم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت القديم وهو الكعبة.

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن كل ما ذكرناه آنفًا من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت، هو بعض من الأحكام المتعلقة بالبيت وبالحج؛ فعليكم أن تعظموه؛ لأن من يعظم حرمات الله؛ فهو خير له عند الله في الدنيا والآخرة، وتعظيمه لها تعظيم لله تعالىٰ، وتعظيم حرمات الله يكون بإقامة الشعائر من ذكر الله وأداء المناسك علىٰ الوجه المشروع، ويكون باجتناب اللغو والآثام، واعلموا أن الله أحل لكم أكل الأنعام إلا ما جاء النص بتحريمه في القرآن فعليكم أن تبتعدوا عنه، وعليكم أن تبتعدوا عن عبادة الأوثان لأنها قذرة ، وابتعدوا أيضًا عن القول المائل عن الحق وعن الافتراء علىٰ الله جل في علاه.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ
﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾
لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ
﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ
أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ
وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ
عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

[٣١] ثم أمر جل وعلا عباده أن يكونوا مقبلين عليه وحده دون من سواه، ولا يشركوا معه أحدًا في عبادته، فإن مَثَل من يشرك بالله كمن خرَّ وسقط من ارتفاع عال في السماء، فَتَلَقَّفَتْهُ وَتَخَطَّفَتْهُ الطيور الجوارح، فذهب كل طائر بعضوٍ منه فقطعوه إِرَبًا، أو أنه حين سقوطه دفعته الريح دفعًا شديدًا إلىٰ مكان بعيد أشد البعد.

[٣٢] ثم كرر جل وعلا وأخبر أن كل ما ذكرناه لكم من الأوامر والنواهي عليكم امتثاله واتباعه، وعليكم تعظيم شعائر الله من المناسك والحج والذبائح وغيرها، لأن تعظيمها دليل علىٰ تقوىٰ القلوب وخشيتها من الله، وأنها قلوب مؤمنة تقية مستقيمة علىٰ طاعة الله.

[٣٣] ثم بين سبحانه أنه لا بأس أن ينتفع الناس من الهدايا المسوقة من البُدْنِ ونحوها، وذلك بركوب ظهورها، والحمل عليها، وشرب ألبانها؛ إلىٰ وقتٍ مقدَّرٍ معلوم، وهو وصولها إلىٰ مكان ذبحها عند البيت العتيق، أي: منطقة الحرم كلها.

[٣٤] ذكر جل وعلا أنه شرع لكل أمة منسكًا، أي: متعبدًا يريقون فيه دماء الذبائح؛ ليذكروا اسم الله عند ذبحها تعظيمًا له سبحانه، ولإطعام الفقراء من هذه الذبائح التي يُتقرب بها لله، واعلموا أيها الناس أن إلهكم واحد وهو الله جل في علاه؛ فعليكم الانقياد والاستسلام له وحده، وبشر يانبي الله أولئك المتواضعين الخاشعين لربهم بالثواب والأجر العظيم.

[٣٥] بين جل وعلا صفات عباده المخبتين الخاضعين الخاشعين، فذكر أن من صفاتهم: أنهم إذا ذُكِر الله وجِلتْ قلوبهم، وارتجفت واضطربت خوْفًا وتعظيمًا، فامتثلوا أمْر الله، واجتنبوا نَهْيَه، ومن صفاتهم: أنهم إذا أصابتهم المصائب فإنهم لا يجزعون؛ بل يصبرون ويحتسبون ويسترجعون، ويرتقبون أجر الله، وينتظرون ما عنده من الثواب، ومن صفاتهم: أنهم يداومون علىٰ أداء الصلاة تامَّة كاملةً بأركانها وواجباتها ومستحبَّاتها، ومن صفاتهم: أنهم من أهل الإنفاق في سبيل الله.

[٣٦] واعلموا أن الإبل المُهْداة إلىٰ الحرم جعلها الله من شعائر هذا الدين، ومن مظاهر العِبَادة، لكم فيها خير كبير من الانتفاع والإطعام، وأجر عظيم، وثواب جزيل، فقولوا عند نحْرها: بسم الله، وانحروها صوافَّ، أي: قائمات، بأن تقام علىٰ قوائمها الأربع، ثم تُعقل يدها اليسرىٰ ثم تُنحر، فإذا سقطت علىٰ الأرض بعد نحرها يتم سلخها؛ فحينها قد هُيأتْ للأكل منها، فكلوا منها ياأصحابها، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل الناس إلحافًا، وأطعموا الفقير الذي ألجأته الحاجة لأن يسأل ويطلب، كذلك سخرناها لكم، وسهّلنا لكم اقتيادها لمواضع نحْرِها، لعلكم تشكرون الله علىٰ هذه النعم التي أنعم بها عليكم.

[٣٧] واعلموا أيها المتقربون المُهْدون لهذه الذبائح أن الله لا يناله شيء من لحم ذبائحكم ولا من دمائها، فهو سبحانه الغنيُّ الحميد، وإنما الذي يصعد إليه: هو إخلاصكم وتقْواكم، وصلاح نياتِكم في هذه القربات، كذلك ذلّلها لكم، وذلل لكم نحرها؛ لتكبِّروا الله وتعظِّموه وتُجِلُّوه علىٰ هدايته إياكم للحق، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبشر المحسنين بالفوز الدائم، والفلاح العظيم في الدنيا والآخرة.

[٣٨] ذكر جل وعلا أن من إكرامه لعباده المخلصين أنه يتولىٰ الدفاع عنهم وينصرهم ويدفع أذىٰ الحاقدين الذين يسوؤهم عز الإسلام وقيام دولة الحق، لأنه جل في علاه يحب المؤمنين ويبغض الكافرين الذين من صفاتهم السيئة الخيانة والإصرار علىٰ الكفر والجحود والضلال.

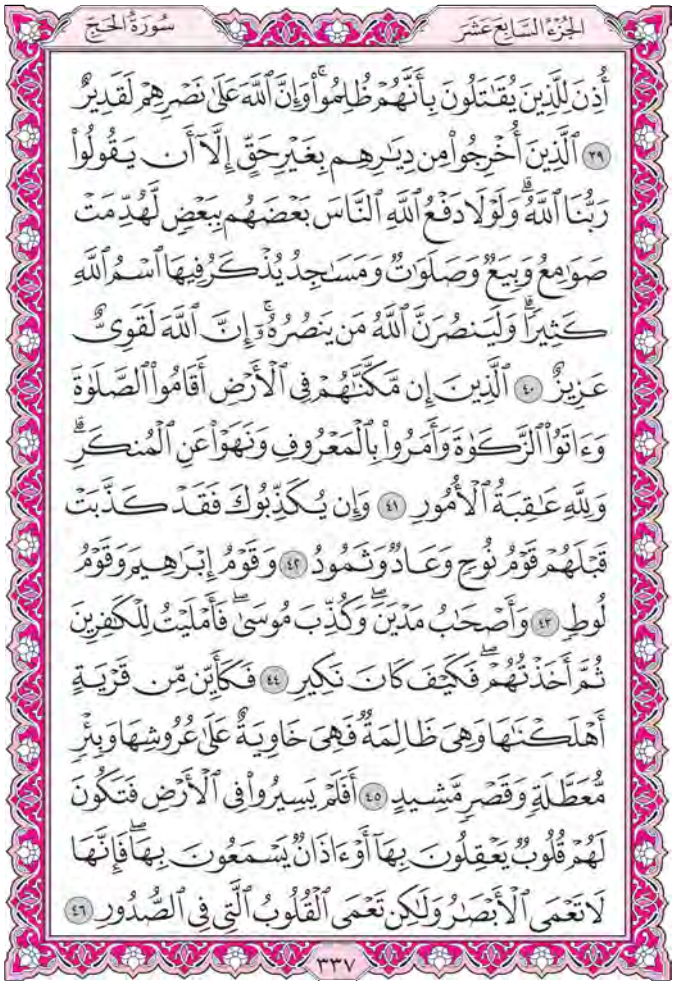

[٣٩] لما كان المسلمون أول أمرهم مستضعفين تحت هيمنة الكفار مُنِعُوا من القتال ومحاربة الكفار رحمة بهم؛ إذ لو استفزوا المشركين لقضوا عليهم، وكان ﷺ في مكة يُصَبِّر المؤمنين كلما اشتكوا وطلبوا منه الإذن بالدفاع عن أنفسهم، فيقول لهم: لم يؤذن لي فتحملوا واصبروا حتىٰ يأتي الله بأمره؛ فلما هاجر المسلمون وصار لهم دولة ومنعة وشوكة نزلت هذه الآية في الإذن لهم بالدفاع عن أنفسهم، وهي أول آية في الإذن بالقتال؛ وقد بين سبحانه أن الإذن لهم بالقتال والدفاع عن أنفسهم بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان، وبين جل شأنه أنه قادر علىٰ نصر عبادة المؤمنين الصادقين.

[٤٠] ثم بين سبحانه أنه أذن بالقتال لأولئك المظلومين الذين اضطرهم أعداؤهم للخروج من بلادهم ظلمًا وعدوانًا وبغير إثم اكتسبوه، فقط ذنبهم: أنهم أسلموا لله وقالوا: ربنا الله وحده لا نعبد ربًّا سواه، ثم بين جل وعلا لولا أنه أباح للمؤمنين القتال ودفع الظلم والجور والعدوان عن أنفسهم لعاث المشركون في الأرض الفساد، ولهدمت أماكن العبادة التي يُصلىٰ فيها ويذكر اسم الله فيها كثيرًا، ثم وعد جل وعلا أن من بذل ما في وسعه لنصرة دين الله وإعلاء كلمته فإن الله سوف ينصره ويثبته لأن الله قوي لا يغالب، وعزيز لا ينازعه منازع. قال أحد أصحاب رسول الله عن قريش:

زعمت سخينة أن ستَغلب ربها ... وليُغْلَبن مُغالب الغلّاب

وسخينة: هي لقب لقريش.

[٤١] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق؛ من صفاتهم: أنهم إذا مكن الله لهم في الأرض أنهم يشكرون الله علىٰ ما أنعم عليهم من التمكين والنصر؛ وذلك بإقامة الصلاة والمحافظة عليها في مواقيتها وأركانها وواجباتها، وإخراج زكاة أموالهم الواجبة عليهم وإعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم، وأمرهم الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، واعلموا أيها الناس أن لله وحده عاقبة الأمور ومرجعها فيجازي كلًّا بما يستحقه، إن خيرًا فخير، وأن شرًّا فشر.

[٤٢] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: لا تحزن يانبي الله فلست وحدك الذي كذبك قومك وآذوك؛ بل جميع الأنبياء من قبلك كذبتهم أقوامهم؛ ومن هؤلاء قوم نوح وعاد وثمود فقد كذبتهم أقوامهم.

[٤٣] ثم ذكر سبحانه أيضًا قوم إبراهيم ولوط حيث كذبتهم أقوامهم.

[٤٤] وكذلك ذكر سبحانه أصحاب مدين وموسىٰ فقد كذبتهم أقوامهم؛ فكانت النتيجة أن الله لم يعاجلهم بالعقوبة؛ بل أمهلهم حتىٰ أقيمت عليهم الحجة ثم أخذ سبحانه كلًّا منهم بالعذاب؛ فانظروا كيف كانت عقوبة الله لهم، وكيف كان إنكار الله عليهم؛ حيث حولت حياتهم إلىٰ موت، وبيوتهم إلىٰ خراب ودمار، وغرورهم إلىٰ ذلة وخسران.

والمقصود: تذكير ووعظ مشركي قريش بأنهم إذا أصروا علىٰ الكفر والعناد فسوف تنزل بهم العقوبة التي نزلت بالأمم المكذبة من قبلهم.

[٤٥] ثم أخبر سبحانه أنه أهلك كثيرًا من أهل القرىٰ بالعذاب الشديد؛ بسبب ظلمهم وشركهم، ومجاوزتهم الحدَّ، فتلك بيوتهم مُهدَّمةٌ خاليةٌ من سكانها، ساقطةٌ عروشُها، وتلك آبارهم معطَّلةٌ لا يُستقىٰ منها، ولا يُنتفَع بها، وتلك قصورهم العالية المزخرفة المُحصَّنةُ، قد سكنها الخراب، وبقيت شاهدة علىٰ من عاش فيها، وقد صاروا عبرة للمعتبرين.

[٤٦] يحثُّ جل وعلا المكذبين بأن يسيروا في الأرض، وبأن يسافروا لينظروا ويتفكروا في أحوال الأمم السابقة؛ علَّ ذلك أن يورثهم قلوبًا سليمةً يعقلون بها، أو آذانًا صاغيةً يسمعون بها سماع استجابةٍ، فإن العمىٰ الحقيقي ليس عمىٰ البصر؛ بل عمىٰ البصائر التي في الصدور.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا
إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي
الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

[٤٧] أخبر الله تعالىٰ في عدة مواضع من كتابه أن الأنبياء كانوا يحذِّرون أقوامهم المكذبين بهم من عذاب الله؛ فكانوا يردون عليهم مستعجلين إياهم العذاب فيقولون علىٰ سبيل التكذيب والتعجيز: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠]، فلأجل ذلك أخبرهم يا نبي الله أن الله لن يخلف ما وعدكم به من العذاب؛ بل سيأتيكم في وقته الذي حدده سبحانه.

وقد جاءهم بعض العذاب كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧٢]، كقَتْل زعمائهم في غزوة بدر وأسرهم وهزمهم، واعلموا أيها المكذبونَ أن يومًا من أيام الله كألف سنة مما تعدون من أيامكم في حياتكم الدنيا.

[٤٨] ثم أخبر سبحانه أن كثيرًا من القرىٰ التي ظلمت نفسها بشركها بالله وتركها توحيد الله واتباع رسوله لم يبادرها بالعذاب؛ بل أمهلها زمنًا طويلًا، فلمَّا تمادوا في غيِّهم أخذهم الله بالعذاب في الدنيا، ثم إلىٰ الله مرجعهم ومآلهم فيعذبهم في الآخرة عذابًا شديدًا.

[٤٩] وقل يا نبي الله: اعلموا أيها الناس إنما أنا نذير لكم واضح الإنذار والتخويف.

[٥٠] وقل لهم أيها النبي أيضًا: واعلموا إن الذين آمنوا بالله، واتَّبعوا رسوله ﷺ، وصدَّقوا ذلك بالأعمال الصّالحة؛ أولئك سيغفر الله لهم زللهم وتقصيرهم، وسيرزقهم رزقًا كريمًا فيدخلهم جنات النعيم خالدين فيها أبدًا.

[٥١] ثم قل لهم: إن الذين جدُّوا واجتهدوا في صدِّ الناس وصرفهم عن آيات القرآن، وآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، ثم هم مع ذلك يظنون أنهم سيُعجِزون اللهَ ويفوتونه؛ فأولئك أصحاب النار الملازمون لها، الخالدون فيها.

[٥٢] واعلم يانبي الله أن الله ما أرسل من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ وتلا كتاب الله لتذكير الناس ونصحهم وإرشادهم؛ ألقىٰ الشيطان الوساوس والشبهات التي تناقض قراءته؛ لتشكيك الناس في أنبيائهم وصدهم عن اتباع ما يقرأونه ويتلونه، لكن الله يبطل كيد الشيطان فيخزيه ويبطل وساوسه، ثم يثبِّت سبحان آياته الواضحات البينات ويحفظها، والله عليم لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حكيم يضع الأمور في مواضعها جل في علاه.

وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرانيق، وقد أنكرها الشيخ المفسر محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسيره أضواء البيان، فقال عند تفسير هذه الآية: (اعلم: أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعًا، ودلالة القرآن علىٰ بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب).

كما أن العلامة الألباني رحمه الله أبطل هذه القصة وأنكر الحديث الوارد فيها، وله رحمه لله رسالة مطبوعة في تحقيق هذا الحديث اسمها: (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)، وهي رسالة فريدة في موضوعها، وقد بين فيها بطلان هذه القصة وعدم ثبوتها.

[٥٣] ثم بين جل وعلا أن ما يُلقيه الشيطان من المكائد والشبهات جعله فتنة وابتلاءً لطائفتين من الناس، الأولىٰ: الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والثانية: غلاظ القلوب الذين لا تؤثر فيهم موعظة، ولا تنفعهم الذِّكْرَىٰ، وإن الظالمين لأنفسهم بالشرك لفي عداوةٍ شديدةٍ ومحادَّةٍ لله ورسوله.

[٥٤] ثم قال سبحانه: وليعلم الذين رزقهم الله العلم، وأنار به بصائرهم، وزكَّىٰ به نفوسَهُم أن هذا القرآن هو الحق النازل من عند الله، بلا أدنىٰ شكٍّ أو شُبهةٍ، فيثبتوا علىٰ الإيمان به ويزدادوا يقينًا، فتسكن وتخضع وتنقاد وتخشع للقرآن قلوبهم؛ فيهديهم الله ويثبتهم علىٰ الإيمان والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، والذي رضيه لعباده.

[٥٥] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أن الكفار المكذبون لا يزالون في شكٍّ وريبة وتردد بما جئتهَم به من القرآن حتَّىٰ تأتيهم الساعة فجأةً، أو يأتيهم عذاب يوم القيامة، وهم – ما زالوا – في شكّهم يعمهون، وفي غيِّهم سادرون.

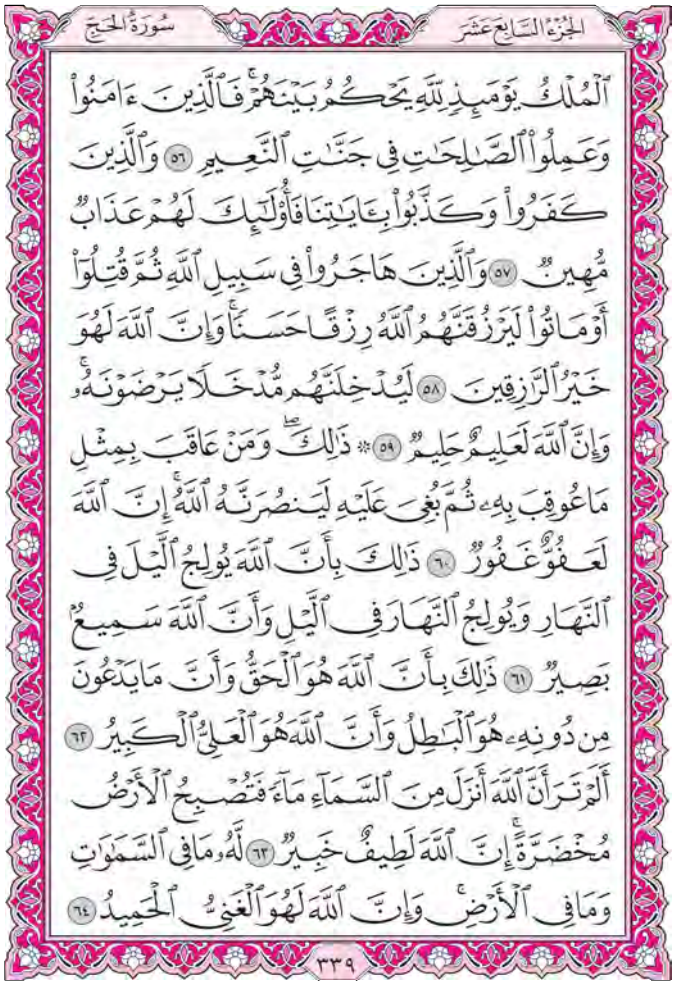

[٥٦] يخبر جل وعلا أن الملك يوم القيامة لله وحده يقضي ويفصل بين الناس بقضائه العدل، وحكمه الفصل، فالذين آمنوا وصدّقوا بالله، واتّبعوا رسوله ﷺ، ودلّلوا علىٰ ذلك بأعمالهم الصالحة؛ أولئك في الجنات يتنعمون فيها بأنواع النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

[٥٧] ثم بين سبحانه أن الذين كفروا وجحدوا وكذّبوا رُسُل الله وآياته الدالة علىٰ وحدانيته؛ فأولئك لهم عذابٌ يخزيهم ويُذلهم ويُهينهم.

[٥٨] وأخبر جل في علاه أن الذين هاجروا في سبيل الله فتركوا أهلهم وأموالهم وأوطانهم، ابتغاء مرضات الله، ونصرةً لدينه، فمن قُتل منهم شهيدًا، أو مات علىٰ فراشه، سوف يرزقهم الله رزقًا حسنًا تقرُّ به عيونهم، وتبتهج به نفوسهم، وإن الله لهو خير الرازقين، يرزق من يشاء بغير حساب.

[٥٩] ثم أخبر جل شأنه أنه سوف يُدخلهم يوم القيامة مُدخلًا يرضونه ويحبونه، وهو جنات النعيم؛ كما أنهم في الدنيا تركوا ما يحبُّون لإرضاء المولىٰ جل في علاه؛ فجازاهم الله وأدخلهم ما يحبون وبه يأنسون ويسعدون، وإن الله لعليم بكل شيء ظاهرًا وباطنًا، عليمٌ بنيات المهاجرين وأحوالهم، حليمٌ لا يُعاجل من عصاه بالعقوبة؛ بل يُمهله، ويتوب عليه إذا تاب.

[٦٠] واعلم يانبي الله أن ذلك الذي أخبرناك به من إدخال المهاجرين الجنة، فاعلم أيضًا أن من بُغِي عليه وظُلِمَ ثم انتصر لنفسه؛ فلا حرج عليه، فإن عاود الظالم وبَغىٰ عليه - بسبب انتصاره لنفسه -؛ فإن الله معه وناصره علىٰ من ظلمه، إن الله كثير العفو عن المذنبين، كثير الإمهال لهم، كثير المغفرة لِمَن تاب ورجع منهم سبحانه وتعالىٰ.

[٦١] واعلموا أن ذلك الذي سن هذه الأحكام العادلة من إدخال المهاجرين الجنة ونصرة المظلوم هو الله، وهو القادر علىٰ ما يشاء، ومن قدرته أنه يُدخِل الليل في النهار، ويُدخل النهار في الليل، بترتيب دقيقٍ مُحْكَمٍ لا يختلف ولا يضطرب، وبه تنتظم فصول السنة، وتصلح حياةُ العباد، واعلموا أن الله سميع لكل الأصوات في جميع الأوقات علىٰ تفنن الحاجات، بصير، يبصر دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، لا يغيب ولا يعزب عنه شيء جل في علاه.

[٦٢] واعلم أن ذلك الذي ذكرناه من إدخال المهاجرين الجنة، ونصرة المظلوم، وإدخال الليل في النهار والنهار في الليل؛ لتعلم أن الله هو الإله المعبود بحقٍّ - دون من سواه -، وأن الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله من الأصنام والجمادات باطلةٌ في ذاتها، وباطلةٌ غايةً ومقصدًا، وأن الله جل في علاه هو العليُّ ذاتًا، وقهرًا وقدرًا، الكبير ذو الكبرياء والعظمة والجلال.

[٦٣] ثم قال تعالىٰ لنبيه ﷺ ألم تشاهد يانبي الله ببصرك أن الله ينزّل المطر من السماء علىٰ الأرض اليابسة القاحلة، فتنبت العشب والزروع؛ فتصبح مخضَّرةً بهيجة المنظر، بديعة الجمال؟!، إن الله لطيفٌ مدركٌ لبواطن الأمور وخفاياها، كثير اللطف بعباده، خبيرٌ بهم، يُيَسِّرُ أمورهم، ويدبر لهم ما يصلحهم.

[٦٤] واعلموا أن لله ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، لا غنىٰ لأحدٍ عنه طرفة عين، ولا أقلَّ من ذلك، له الغنىٰ التامّ، فهو سبحانه مستغنٍ عن جميع المخلوقات، لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضرُّه معصية العاصي، وهو سبحانه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته، وشرعه، وتوفيقه، له الحمد حتىٰ يرضىٰ، وله الحمد إذا رضي، وله الحمد بعد الرضا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ
فِى ٱلْأَمْرِ ۘ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ
ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ
عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

[٦٥] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: ألم تشاهد ببصرك يانبي الله أن الله ذلَّلَ لكم جميع ما في الأرض من طُرُقٍ وحيوانات وجمادات، وهيّأ ذلك لكم لتنتفعوا به غاية ما يكون الانتفاع، وذلّل لكم أيضًا السفن التي تجري في البحر بأمره وقدره ورحمته، وهيأها لكم لتنتقلوا عليها، وتحملوا عليها متاعكم من مكان إلىٰ آخر، وأن الله - بلطفه ورحمته - يمسك السماء ويمنعها من أن تقع علىٰ الأرض إلا بمشيئته وإرادته، واعلموا أن الله بتسخيره هذه الأمور؛ كثير الرأفة بالناس، كثير الرحمة بهم، والاحسان إليهم.

[٦٦] واعلموا أن الله سبحانه هو الذي أوجدكم من العدم، وهو وحده الذي يميتكم حين انقضاء أعماركم، ثم يوجدكم مرَّةً أخرىٰ للبعث والجزاء، إن الإنسان لكثير الكفر بنعم الله وآياته الدالة علىٰ وحدانيته، كثير الجَحْدِ لها.

[٦٧] يخبر جل وعلا أنه جعل لكل أمة شرعةً ومنهاجًا في العبادة قائمين عليه يتعبدون الله به، متفقين عليه، وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة، وقد يختلفون في بعض الأمور الفرعية، ولهذا لا يُنازِعُ أحدٌ من الناس رسول الله ﷺ في شِرعته ومنهاجه الذي شرعه الله له؛ بل علىٰ الجميع الامتثال والطاعة، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يدعُ إلىٰ توحيد ربه والإيمان به بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم أثنىٰ جل شأنه علىٰ نبيه ﷺ فأخبر أنه علىٰ طريقٍ سويٍّ واضحٍ لا اعوجاج فيه.

[٦٨] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: وإن أصرّ يانبي الله الكفار علىٰ الجدال والمكابرة والمعاندة، فلا تُجاريهم، ولا تسترسل معهم؛ بل قل لهم قولًا مُجمَلًا مشتملًا علىٰ الوعيد: الله أعلم بكم وبما تعملون، وسيجازيكم علىٰ نياتكم وأعمالكم.

[٦٩] واعلموا أن الله وحده هو الذي سوف يفصل يوم القيامة بين فريق التوحيد والإيمان وفريق الكفر والطغيان، فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين، وتجادلون فيه معاندين مكابرين، وحينها سيتبين لكم المحقُّ من المُبطِل.

[٧٠] ألم تعلم يانبي الله أن الله أحاط علمه بجميع ما في السماوات والأرض!، فلا يخفىٰ عليه من أمرهما شيء؛ بل إن الله أثبت ذلك في اللوح المحفوظ عنده، وهذا أمرٌ سهلٌ هيِّنٌ يسيرٌ علىٰ الله جل في علاه.

[٧١] يخبر سبحانه أن المشركين يعبدون آلهة من دون الله، وليس لهم دليل واضح - عقلي ولا نقليّ - علىٰ عبادتهم؛ بل عبدوا تلك الآلهة علىٰ ضلالٍ وجهل، وهم بذلك قد تجاوزوا حدَّهم، وظلموا أنفسهم بشركهم بربهم؛ فلهم عذاب شديد، لن ينجيهم منه أحد، ولن يدفعه أو يخففه عنهم أحد.

[٧٢] ثم أخبر جل في علاه أن هؤلاء المشركين إذا تُتلىٰ عليهم آيات القرآن تتغير وجوههم، ويظهر عليها الغضب والعبوس والاكفهرار، فيزداد غضبهم وحنقهم علىٰ أهل الإيمان الذين يتلون عليهم هذه الآيات؛ حتىٰ إنهم يكادون يفتكون بهم، فقل لهم يامحمد: ألا أخبركم بما هو شرٌّ لكم مما أنتم فيه من الغيظ والحنق: النار التي هيأها الله لكم لتكون مستقرًّا ومقامًا لكم، فبئست الحال التي أنتم عليها، وبئس المصير الذي ينتظركم.

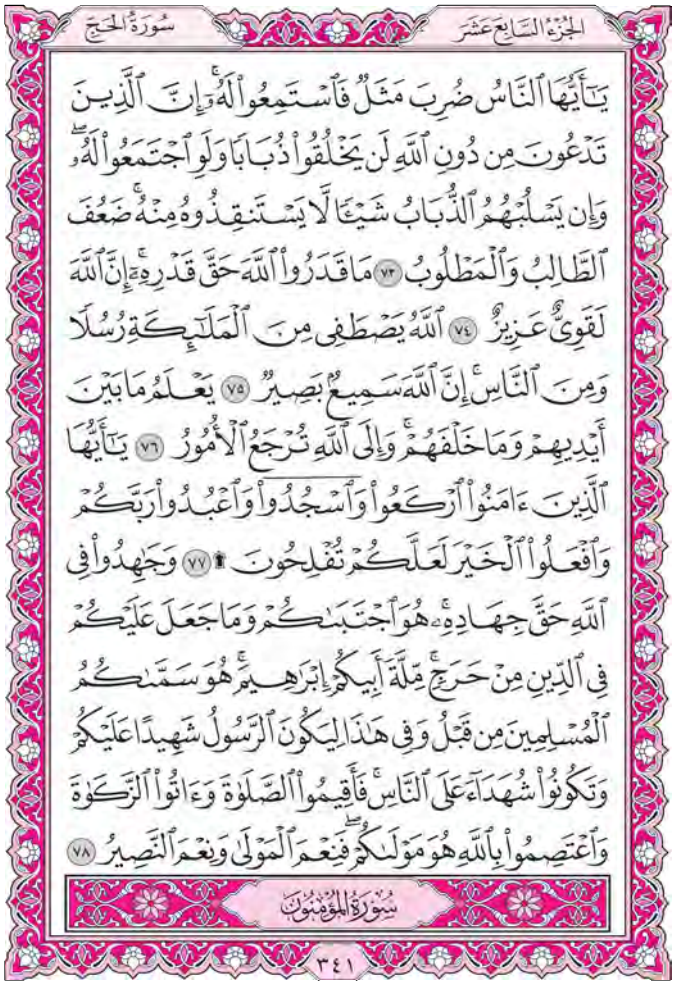

[٧٣] وهذا نداء من الله لجميع الناس، يقول فيه: يأيها الناس لقد ضرب الله لكم مثلًا فاستمعوا له سماع تدبُّرٍ وتفكّر: اعلموا أن الذين يعبدهم الناس من دون الله لا يستطيعون - مجتَمِعِينَ - خلْق أحقر الحشرات، وهي الذبابة؛ بل إنْ سَلَبَتْ منهم هذه الحشرة شيئًا لا يستطيعون استرجاعه منها، وهذا غاية العجز والضعف، فالآلهة التي يعبدونها من دون الله ضعيفة، والذباب الذي لا يستطيعون خَلْقَه، ولا يستطيعون استنقاذ ما يسلبه منهم ضعيف، لقد ضعف الداعي والمدعو.

[٧٤] ثم أخبر جل شأنه أن هؤلاء المشركين الذين عبدوا هذه الأوثان من دون الله ما عظَّموا الله حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، لمَّا سوَّوا بينه وبين هذه المخلوقات الضعيفة، فأشركوها معه في العبادة، واعلموا أن الله هو القوي الذي قهر كلّ شيء، ومَلَكَ كل شيء، وهو العزيز الذي لا يغلبه أحد، ولا يعجزه شيء جل في علاه.

[٧٥] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي يختار ويجتبي من الملائكة رسلًا، وكذلك من الناس، ثم أخبر سبحانه أنه سميع لأقوال عباده، بصير بكل شيء.

[٧٦] ثم أخبر سبحانه أن علمه قد أحاط بجميع الملائكة والرسل ماضيًا ومستقبلًا، أوَّلًا وآخرًا، ثم أخبر أن جميع أمور العباد ترجع إليه وحده، ومن ذلك: أن من استجاب للرسل الذين أرسلهم بالهدىٰ فسوف يثيبه، ومن كذَّبهم فسوف يعاقبه.

[٧٧] ثم ينادي جل وعلا عباده المؤمنين بأحب وصفٍ إليهم، وهو وصف الإيمان، ويأمرهم بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود لفضلهما، ويأمرهم بأن يعملوا كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة اللازمة والمتعدية، ثم خصَّ من ذلك: فعل الخيرات؛ فإنكم أيها المؤمنون إن فعلتم ذلك أفلحتم الفلاح العظيم، وفزْتم الفوز الكبير.

[٧٨] ثم ختم جل وعلا السورة بأمر عباده المؤمنين في استفراغ الجهد في حرب الأعداء بالمال والسلاح والنفس من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه في مشارق الأرض ومغاربها؛ فهو سبحانه الذي اختارهم للدفاع عن دينه، واعلموا أن من رحمة الله بكم أنه لم يجعل عليكم في الدين ما فيه مشقة أو ضيق؛ بل جعل هذا الدين مبنيًّا علىٰ اليسر والتخفيف، كما كان الأمر كذلك في ملة أبيكم إبراهيم.

وقد منَّ الله عليكم أن سماكم المسلمين في الكتب المنزلة السابقة وفي القرآن الذي بين أيديكم، وقد اختصكم الله بذلك ليكون الرسول محمد ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين شهيدًا عليكم أنه بلغكم الرسالة وأدىٰ الأمانة، وتكونوا أنتم أيضًا شهداء علىٰ الأمم بأنَّ رسلهم قد بلغتهم رسالة ربهم كما أخبركم القرآن بذلك.

ولأجل ذلك يجب عليكم أن تشكروا هذه النعم وتحافظوا عليها بأداء الصلاة والمحافظة علىٰ أركانها وشروطها وأدائها في أوقاتها، كما عليكم أن تؤدوا زكاة أموالكم المفروضة عليكم، وعليكم أن تلجأوا إلىٰ الله وتتوكلوا عليه في سركم وعلنكم، لأنه هو الذي ينصركم ويتولىٰ شؤونكم؛ فنعم المولىٰ لمن تولاه ونعم النصير لمن نصره.